هل الدين ظاهرة اجتماعية؟

في حياتنا الفكرية والاجتماعية نقاط كثيرة، تظل تضطرب بين دوافع المد والجزر، بل تظل مبددة حيرى، خلف كلمات وتعابير، هي إلى الرمزية أقرب منها إلى الكلام المبين.

ولو كانت هذه النقاط ثانوية في حياتنا الفكرية أو الاجتماعية، إذن لهان الخطب، ولأجزنا لأنفسنا أن نجعل من موضوعاتها قصائد رمزية، يفهمها كل سامع كما يريد، وينال الشاعر بها رضا الجميع.

ولكنها نقاط أساسية كبرى، تتضمن أهم قضايانا التي إليها مرد ترسيخ هويتنا وشخصيتنا الفكرية والاجتماعية، بل الحضارية عموماً، ومن ثم فهي لا تحتمل إلا البيان الجازم، والنصوص المحكمة القاطعة.

وفي نظري أن خير ما يلجئ رجال الفكر والعلم في بلادنا، إلى تجلية آرائهم حول هذه القضايا الأساسية، وإلى الابتعاد عن استعمال العبارات ذات الدلالات الرمزية أو الغامضة أو المتشابهة، وإلى وضع النقاط على الحروف في التعبير عن قناعاتهم الفكرية وجذورهم المذهبية، إنما هو الحوار..

أجل.. الحوار الوهاج بين ذوي الأفكار المتعارضة والقناعات

المتناقضة.. ذلك لأن الأساليب الرمزية والجمل الملفوفة الغامضة، لا مستقر لها بين طرفي حوار!..

وتلك هي مزية الحوار والنقاش بين الأطراف، أنها تصقل الفكرة وتصهرها، وتصفيها من الشوائب وغشاوات الغموض.

وإذا لم يتح لنا أن ننشئ مثل هذا الحوار في ندوات مفتوحة، أو مساجلات منظمة، ترعاها مجلات أو صحافة تخلص في خدمة الفكر الحر والسعي إلى الهدف القدسي العظيم، ألا وهو معرفة الحقيقة، فلا أقل من أن نلاحق بحوارنا العلمي الهادئ أولئك الذين ينثرون أفكارهم ويقذفون بها فوق منابر سيارة متحركة مسرعة، تأبى الوقوف أمام وجه أي مستفسر أو محاور، لعل كلماتنا تبلغهم، فتسري إلى عقولهم، فيضعونها موضع التدبر والتأمل الموضوعي من أفكارهم، فينقادون إلى المناقشة والحوار، فتتضح من وراء ذلك المبهمات وتتلاقى الآراء وتجتمع الكلمة.

ولئن لم يتم من ذلك شيء، فحسبنا أننا قد أبرأنا الذمة، على طريقة ذلك الفقيه الشفوق الذي قيل إنه كان سائراً في طريق، فمر به رجل أعجبته القلنسوة التي كانت على رأسه، فخطفها وولى مسرعاً، فلحقه الفقيه ينادي: يا هذا، وهبتك القلنسوة، قل قبلت!..

* * *

في حديث أو حوار صحافي منذ سنوات خلت، أذكر أن

أستاذاً للفلسفة بجامعة الكويت[١] قال كلاماً أنقل إليك منه ما يلي:

إن من أهم القضايا التي تنتظر الحل مشكلةُ موقف الإنسان العربي من الدين، فمفكرو النهضة العربية المعاصرة، لم يتخذوا موقفاً صريحاً وجريئاً من هذه القضية إلى الآن.. ثم قال: «إنني وإن كنت لا أدعو إلى ثورة شاملة في هذا الميدان، ولكني على الأقل أدعو إلى فكر مستنير في الميدان الديني» وضرب المثل في الحل المنتظر، بالنهضة الأوروبية قائلاً: «فقد اتخذ الأوروبيون موقفاً صريحاً وحاسماً من هذه القضية، وحلوا المشكلة حلاً جذرياً عندما حدوا من سلطان الدين، وأبعدوه عن التدخل في أمور الدولة وأمور العلم».

إنني أوافق أستاذ الفلسفة على أن هذه المعضلة، من أهم القضايا العربية التي تنتظر الحل فعلاً، ولذا، فقد كنت أتمنى - وهو واحد من مفكري النهضة العربية المعاصرة - أن يجعل منها موضوع محاضرة، في البلدة التي دعي أستاذاً زائراً إليها، وأجرى هذا الحديث الصحافي فيها، يُدْعَى إليها لفيف من هؤلاء المفكرين من مختلف القناعات والاتجاهات، ثم يُجرى حوار علمي رزين بين الأطراف كلها، حول ما قد يطرحه من قناعات واقتراحات في هذه القضية، وفي تصوري أن ثماراً مفيدة ذات أهمية كبرى كانت ستتحقق من وراء ذلك، ولَصَقَل الحوارُ

(١) اسمه فيما أذكر: فؤاد زكريا.

القضية المطروحة، وأبرز حجمها وكشف عن جذورها وأوصل الجميع إلى الحل العلمي الأمثل لها.

ولكن الرجل لم يفعل ذلك، بل اكتفى بتحريك الموضوع واستثارة الأفكار نحوه، بعبارات ملفوفة وإشارات رقيقة ذات احتمالات متعددة، ولا ندري، فربما كان له عذره في اتخاذ هذا الموقف.

ولكن نظراً لقناعتي التامة، بأن المسألة تعد، حقيقة كما قال، من أهم القضايا التي تنتظر الحل، وأن على المفكرين اتخاذ موقف صريح وجريء منها، ورغبة مني في الاستجابة الصادقة لدعوته الشكلية، أقول اليوم بكل احترام وموضوعية:

ها أنا ذا - بوصفي واحداً من هؤلاء المفكرين إن جاز لي هذا القول - على استعداد لأن أتخذ موقفاً صريحاً وحاسماً من هذه القضية، ولسوف أذهب في الجرأة في معالجتها إلى أبعد مما كان قد طلبه أستاذ الفلسفة بجامعة الكويت، مبتعداً عن التعابير ذات الدلالة الشمولية الغامضة، واضعاً النقاط اللازمة على كل الحروف المتعلقة بها.

يعلم أستاذ الفلسفة وغيره من سائر المثقفين، أن الدين المتعامَلَ معه في حياة الأوروبيين، وفي منظورهم الفكري، إنما هو ظاهرة اجتماعية، تشكل، في معظم ما تنطوي عليه، حصيلة الفكر الإنساني خلال القرون الغابرة، وإن كانت له جذور ذاتية لا علاقة لها بصنع الإنسان، فيما يراه المؤمنون منهم.

فمسيحية الغرب - فيما يعرفه الغربيون جميعاً - هي تلك التي صاغها بولص اليهودي الأصل، وقسطنطين الروماني. والأناجيل المتداولة ليست، فيما يعرفون ويعتقدون جميعاً، تعبيراً عن الوحي الذي كان يتنزل على سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، وإنما هي كتابات ومذكرات لأولئك الذين يسمون بالرسل، جمعوا فيها أخبار المسيح وسيرته وطائفة من أقواله.

ومن ثم فإنهم لا ينظرون إلى المبادئ والتعاليم المسيحية، على أنها أوامر إلهية نزلت على بني إسرائيل، أو على الناس عموماً بحيث لا يسعهم إلا تطبيقها والالتزام بها، وإنما هي - فيما يجزمون به - مجموعة أفكار وإلهامات وآراء متلاحقة ومتطورة، لقيت استجابة وقبولاً، ثم حظيت من المجامع الكنسية بالقبول والتقديس.

ومن هنا جاز لهم عموماً وللباحثين الاجتماعيين خصوصاً أن ينظروا إلى الدين المتَعامَل به في حياتهم على أنه ظاهرة اجتماعية من نسج الإنسان وصنعه.

يقول جون ستوارت ميل في كتابه الحرية، عند الحديث عن مشكلة الضرورات التي ينبغي أن تكون قيداً لها، جواباً لمن يقترح اللجوء إلى التعاليم والآداب المسيحية في تحديد هذه الضرورات، لكي تحل المشكلة ويزول اللجج والخصام في تحديد طبيعتها ونوعها يقول:

«إن ما يسميه الناس آداب المسيحية - وإن كان الأصح أن

يسمى الآداب الكهنوتية - ليس مما أخذ عن السيد المسيح، ولا مما نقل عن الحواريين؛ بل هي آداب وضعتها الكنيسة الكاثوليكية على سبيل التدريج أثناء القرون الخمسة الأولى».

وهذا الذي يصرح به ستوارت ميل، إنما هو تعبير عما تكنه ضمائر سائر المفكرين والمثقفين الغربيين بمن فيهم رجال الدين أنفسهم.

ولذا كان منطقياً بالنسبة إلى عقائدهم هذه أن يجعلوا لأنفسهم سلطاناً في تطويرها واستخدامها لما يرونه من منافعهم ومصالحهم، بتوسيع صلاحياتها أو تضييقها والحد منها، إن اقتضى الأمر.. وهكذا فليس غريباً ولا مستهجناً في المجتمع الغربي، أن يقترح باحث قانوني أو أحد علماء النفس أو الفلسفة مثلاً، تغيير كثير من المبادئ والآداب المسيحية والاستبدال بها، إذ إن ذلك شأنهم، بل هو من صميم صلاحياتهم الاجتماعية، وإن كان الأخذ بمقترحاتهم يحتاج إلى إجراءات محددة.

يقول بنتام - وهو عالم بريطاني في الاجتماع والفلسفة والقانون -: «يجب أن يكون سير الديانة موافقاً لمقتضى المنفعة، فالديانة باعتبارها مؤثراً تتركب من عقاب وجزاء، فعقابها يجب أن يكون موجهاً ضد الأعمال المضرة بالهيئة الاجتماعية فقط، وجزاؤها يكون موقوفاً على الأعمال التي تنفعها فقط، وهذه هي القاعدة الأولية، والطريقة الوحيدة في الحكم على سير الديانة هي النظر إليه من جهة الخير السياسي في الأمة فقط، وما عدا ذلك لا يلتفت إليه».

والخلاصة، أن الدين المتعارف عليه عند الغربيين، ليس أكثر من ظاهرة إنسانية، ومن ثم فلا عجب في أن يتخذوه أداة تسخير لبلوغ رغباتهم وتحقيق أفكارهم، بل لا غرابة في سعيهم إلى تطويعه، لتحقيق الكثير من أهوائهم ونزواتهم.

* * *

أما نحن هنا فإن الدين الذي تعتنقه الأغلبية العظمى فينا إنما هو الإسلام، ولا عجب أن يفكر كثير من المسلمين بادئ ذي بدء - ولا سيما المسلمين التقليديين - في إمكان أن يبسطوا هم الآخرون من أنفسهم سلطاناً على الإسلام لتطويره كما يحبون، ولاستخدامه لما يبتغون، وتوسيع صلاحياته أو تضييقها كما يشتهون، كما يفعل الغربيون تماماً.. أقول لا عجب من الإقدام على هذا بادئ ذي بدء، نظراً إلى أن كليهما يقال له دين، وما دام هذا القاسم المشترك قائماً بينهما، فلعل ما يجوز على ذلك يجوز على هذا.

ولكنا ما دمنا نتكلم دائماً باسم العلم، ونتجمل بشارات العلم، ونعلن عن إعراضنا عن كل شيء في سبيل العلم - فإن منطق العلم يقضي بأن نبحث عن الجسر الواصل بيننا وبين هذا النوع من التعامل مع الإسلام.

لقد كان الجسرُ الذي يَسَّر على الغربيين استخدام دينهم كما يشاؤون وتحجيمه وتحديده طبقاً لما يشتهون قناعَتَهم العلمية التامة بأن الصنعة الإنسانية صاغت معظمه، ورسمته شيئاً فشيئاً، طبقاً لعوامل وأسباب معروفة، حتى إنه صح لهم أن يسموه،

بسبب ذلك، إحدى الظاهرات الاجتماعية، فهل يوجد بين أيدينا هذا الجسر الذي ييسر علينا استخدام الإسلام على هذا الأساس؟

من هنا يبدأ حل هذه المعضلة، وعند معالجة هذه البداية تظهر أهمية الجرأة وقيمتها الحقيقية، والذي أراه إلى الآن أن كثيرين هم أولئك الذين يشتهون أن يعامِل المسلمون إسلامهم هنا، كما يعامل الغربيون دينهم هناك، ولكني لم أر ولا واحداً من هؤلاء الكثيرين انطلق عائداً إلى جذور المسألة ليعكف على دراسة علمية موضوعية عن جوهر الإسلام وحقيقته، ثم أوصلته دراسته إلى أن الإسلام هو الآخر ليس أكثر من حصيلة أفكار وابتداعات إنسانية تجمّع بعضها إلى بعض خلال القرون!... ولو تم هذا، ودلت الدراسات العلمية أن محمداً ﷺ ابتدع الرسالة التي بلَّغها الناس من بنات أفكاره، وأن القرآن الذي بين أيدينا حصيلة أفكار إنسانية، وصياغة بشرية، فإنني عندئذ لا أدعو إلى الحد من سلطانه فحسب، بل لا بد أن أنادي - بكل قناعة فكرية وطمأنينة وجدانية - بضرورة التحرر من سائر قيوده وأثقاله، ولسوف أردد مع «سارتر» أطروحته التي يقول فيها: «إن من العبث أن نبحث عن قِيَم نقيِّد أنفسنا بها، في عالَم لا وجود فيه للخالق» أجل، فإن ذلك أحرى بنا من أن نجامل قيماً لا وجود لها، سواء كانت المجاملة في المساجد والمعابد أو في أبهاء الحكم وتحت أقواس القضاء، فهي على كل حال مجاملة لا مسوغ لها والتزام بما لا يلزم.

أما إن قضى قرار هذه الدراسة العلمية الموضوعية الخالية عن الشوائب بأن الإسلام في أصوله الاعتقادية ومصادره الأصلية وبنيانه التشريعي، واقع ذاتي ذو وجود موضوعي خارج ومستقل عن ذهن الإنسان وكيانه - فلا مناص لنا عندئذ، إن أردنا أن نكون علميين وموضوعيين حقاً، من الخضوع لسلطانه والتقيد بأحكامه، كما لا مفر لنا من الخضوع لأي ناموس أو نظام كوني مستقر مشاهد أمامنا، ذي وجود موضوعي خارج عن تصوراتنا وأذهاننا، ولا يوجد عندئذ أي معنى للدعوة إلى إبعاده عن التدخل في أمور العلم، لأنه في حقيقته واحد من موضوعات العلم وأهم مضمون من مضامينه.. وهذا ما بحثناه بحرية مطلقة وفكر علمي متحرر في الفصلين السابقين من هذا الكتاب.

أرأيت إلى نظام الكواكب في منازلها وتسيارها؟ إن من العبث بمكان أن تدعو إلى إقصائه عن أمور العلم، لأنه في واقعه الموضوعي الثابت المستقر يشكل موضوعاً من موضوعات العلم وواحداً من متعلَّقاته، فكذلك الدينُ الذي ثبت لدى المنطق العلمي الحيادي أن له وجوداً ذاتياً قائماً بذاته، متمثلاً في الوحي الإلهي، والقرآنُ الذي هو رسالة الله عز وجل إلى عباده، لا يمكن إلا أن يكون هو الآخر موضوعاً من أخطر موضوعات العلم وواحداً من أهم متعلقاته.

كما لا يوجد أي معنى عندئذ للدعوة إلى إقصائه عن المجتمع والدولة، وقصره على الأفراد من الناس كلٍّ فيما بينه وبين نفسه، ذلك لأن المجتمع ليس أكثر من الفرد المتكرر، ولا ريب أن

اصطباغ آحاد الناس به بطواعية وصدق يساوي خضوع المجتمع له والتزامه به، على أن التفريق بين الفرد والمجتمع بصدد الخضوع لحقيقة ثابتة مستقرة لا مراء فيها، تفريق لا معنى له ولا ينطوي على أي مضمون، وهذه أيضاً من الحقائق العلمية التي إن خفيت على أحد فما ينبغي أن تخفى على الفلاسفة، ولا سيما فلاسفة هذا العصر.

❊ ❊ ❊

وريثما يطالعنا أولو الرغبة في أن نتعامل مع الإسلام هنا، كما يتعامل الغربيون مع دينهم هناك، أقول: ريثما يطالعنا هؤلاء بنتيجة دراستهم العلمية الموضوعية الحيادية، لجوهر الإسلام وأساسه، أهو حقيقة ذاتية ذات وجود موضوعي مستقل عن الإنسان أم هو الآخر ظاهرة إنسانية اجتماعية - لا بد أن نقول كلمة تكشف عن يقيننا العلمي في هذا الموضوع، تضاف إلى البيان العلمي الذي انتهينا إليه في الفصول السابقة.

ما من ريب في أن الإنسان لم يصنع ذاته، وما من ريب في أنه ليس فاعلاً لشيء من الطاقات والصفات التي يعرفها في كيانه، بل هو منفعل بها، أي إنه مجرد وعاء حشي بمجموعة طاقات.

ولا شك أنه لا يملك أن يجذبها إليه أو أن يدفعها عنه أو أن يبقيها في كيانه، فهو إذن جهاز استقبال.. أجل هو جهاز استقبال بكل ما في هذه الكلمة من معنى، واليقين العلمي بجهاز

الاستقبال يسوق - لا محالة - إلى اليقين العلمي بوجود جهاز إرسال يقابله، ذلك لأن بين هذين اليقينين تلازماً بيناً لا يقبل الانفكاك.

من أين ينعكس إرسال هذه الطاقات إلى الإنسان، فتتحرك في كيانه مبدعة ومنتجة ومدركة، إلى أجل مسمى، ثم تتقلص عنه مرةً واحدة، فإذا هو كالشاشة البيضاء التي انقطعت عنها أشعة الصور التي كانت تتحرك عليها؟ أجل، من أين يتم إرسال هذه الطاقات إلى الإنسان؟

ألا يفرض العلم على أهله طرح هذا السؤال؟ وهل من سبيل لأن يفِرَّ العاقل بعقله عن مواجهته والبحث في إجابة علمية شافية عنه؟

لقد أطلت التأمل في هذا السؤال في صدر حياتي، كأي إنسان يفرض عليه عقله ذلك.. ولقد استعنت لمعرفة جواب علمي سديد خالٍ عن الشوائب، بكل الجهود المعرفية والوسائل العلمية التي يتعامل بها شتى فئات الناس على اختلاف عقائدهم واتجاهاتهم..

وانتهيت إلى قرار علمي يكمن في نهاية طريق علمي يصل إليه كل من سلكه واتجه إليه، خلاصة هذا القرار أن الإنسان صنعة خالق أوجده ابتداء، ثم إنه يمده بمقومات الوجود دواماً، ويُفيض عليه بما شاء من الملكات والطاقات التي يمتعه بها إلى أجل معلوم، فالله الخالق هو الفاعل لها والإنسان منفعل بها.

هذا الواقع العلمي الذي لا مرية فيه، يجعل من الإنسان المنفعل بتلك القدُرات والصفات عبداً مملوكاً، ومن الخالق الفاعل لتلك القدُرات إلهاً ومالكاً.

إذن فالإنسان عبد مملوك لا محالة، وعبودية الإنسان هي بذاتها عنوان ربوبية الله عز وجل، وإنما ينبثق الدين أو الدينونة من علاقة ما بين هذين الطرفين.

وهكذا يتبين لنا بالبرهان العلمي القائم على الواقع الحسي المشاهد، أن دينونة الإنسان للخالق حقيقة ذاتية ذات وجود موضوعي مستقل عن الإنسان وفكره لا يزعزعها أو يغير من ثبوتها جحود الجاحدين ولا إلحاد الملحدين ولا نسيان التائهين عن معرفة أنفسهم.

ولكن كيف يمارس الإنسان دينونته هذه لمن خلقه ابتداء ثم إنه يرعاه ويمده بسر الحياة والوجود دواماً؟ كيف يضع عبوديته لهذا الخالق موضع التنفيذ؟

أجاب الإسلام عن هذا السؤال إجابة تفصيلية شاملة.. وما الإسلام في حقيقته ومضمونه إلا جملة التعليمات التي خاطب الله بها عباده إخباراً وتكليفاً ليتحققوا من خلال تنفيذها بواقع عبوديتهم لله عز وجل، فهو منهج دينونة العبد المخلوق لإلهه الخالق عز وجل.

ولقد كرر الله إرسال هذا المنهج، في مختلف الأحقاب المنصرمة، إلى شتى فئات الناس والجماعات، عن طريق آلاف

الرسل والأنبياء، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤].

وكان آخرهم محمداً عليه الصلاة والسلام، أرسله الله إلى أهل الأرض من البشر جميعاً، بعد أن كان الأنبياء والرسل السابقون يُرسَلون إلى أقوامهم وبلدانهم الخاصة بهم.

ولقد درسنا سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ووقائعَ حياته، دراسة الناقد الحيادي الذي لا يبتغي بديلاً عن المنهج العلمي، فلم نجد من سبيل علمي يسمح بافتراض أنه أبدع رسالة إلى الناس من داخل كيانه، واستخرج كل ما حدَّثَ الناس به من بنات أفكاره وأنه كان أعظم كاذب على الله في الوقت الذي عرفه البشر جميعاً أولَ أمين صادق مع الناس.. أجل بحثنا فلم نجد من سبيل علمي يسمح بهذا الافتراض.

وتأملنا في القرآن الذي بَلَّغنا إياه، مؤكداً أنه كلام رب العالمين شكلاً وموضوعاً، صياغةً ومعنى، وأنه لم يزد عليه حرفاً ولم يُقحم فيه مضموناً، ووضعناه تحت مجهر الدراسة العلمية الصافية عن أي أسبقية أو تحيز، فلم نجد من سبيل إلى زعم أنه اختلقه على الله ونسبه إليه، بل لم نجد من سبيل إلى القول بأنه مما يمكن أن يصوغه بشر من الناس أياً كان، ورأيناه مغموساً بمظاهر الإعجاز التي لا يقوى على مثلها البشر في أي من عهوده المنصرمة أو المقبلة.

لقد درسنا كيفية وصوله إلينا، فعلمنا ما قد علمه الباحثون

جميعاً، من أنه وصل إلينا من فم محمد عليه الصلاة والسلام، خلال نفقين اثنين أحدهما يتمثل في التلقي الشفهي البالغ درجة التواتر القطعي، ثانيهما يتمثل في التدوين الكتابي الذي تم بإشرافه وأمره ﷺ.

إذن فالقرآن هو رسالة الله إلى عباده، ومحمد ﷺ ليس أكثر من أمينه الذي بلَّغ ما ائتمنه الله عليه، وصدق الله القائل عنه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٧].

وبدهي إذن أن يكون جميع ما تضمنه القرآن من أخبار عن الماضي السحيق أو الغيوب المقبلة، أو التكاليف الشرعية حقائقَ آتيةً من عند الله، ذات وجود موضوعي مستقل عن فكر الإنسان وإبداعه.

فهل من سبيل إذن للقول بأن الإسلام الذي لا يتمثل في أكثر من كتاب الله وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، عبارة عن ظاهرة إنسانية واجتماعية، ابتدعتها أفكار إنسانية، ومن ثم فهي قابلة للنظر فيها والتطوير لها والحد منها؟..

وإذا لم يكن إلى ذلك من سبيل، فهل قضى العلم ذات يوم بصحة السير وراء واقع المجتمعات الغربية، واستعارة تاريخ الدين في حياتهم، لنجعل منه تاريخاً مستورداً نلصقه هنا بديننا، لمبرر واحد لا ثاني له، ألا وهو شدة تعلق العاشق المحب بتقليد محبوبه؟ أقول: هل قضى العلم ذات يوم بصحّة السير في هذا المنحدر العجيب؟

إن كان هؤلاء الإخوة لم يدرسوا الإسلام بعدُ دراسة علمية صافية مستوعبة، فما لهم لا يدرسونه ولماذا يناقضون القاعدة العلمية القائلة: الحكم على الشيء فرع عن تصوره، إذ يأبون إلا أن يحكموا على الشيء قبل تصوره؟ وإن كانوا يأبون إلا أن يجعلوا من الدين في ربوع الغرب إماماً مقتدى به ومن الإسلام هنا تابعاً ومقتدياً، فلماذا؟ وما المسوغ العلمي لذلك؟

أمّا إن كانت نفوسهم معقدة تجاه الإسلام، فهم ينطلقون في الأفكار التي يطرحونها، من زفرات العُقَد المستحكمة في نفوسهم، لا من القناعات العلمية الماثلة في أذهانهم، فماذا عسى أن تشفي الزفرات، إذا لم يشأ صاحبها أن يفرق بين الوهم الذي يمكن تبديده بنفخة، والحقيقة الجاثمة التي لا مفر لها ولا محيد عنها؟

❊ ❊ ❊

وأخيراً، فإني أعلن صادقاً، على الرغم مما أوضحت من اليقين العلمي الذي أحرزته في مستقر القناعة التامة من عقلي، أنني في انتظار من يزيدني علماً، أو يصحح مفاهيمي إن كنت مخطئاً، أو ينبهني إلى قيود وتتمات من شأنها أن تغير من يقيني العلمي إن كنت غافلاً، لأشكره على إرشاده وتنبيهه، ثم ليجدني لاحقاً به ماشياً على أثره.

كل ما هو مطلوب، أن نكون علميين صادقين في دراستنا وفي منطلقاتنا، وأن نحاول حل هذه «المعضلة» كما سماها رئيس

قسم الفلسفة، بدءاً من النظر في جذورها الأولى، لا قفزاً إلى التحديق في نهاياتها وفروعها.

ولعل أستاذ الفلسفة، وقد عبر عن أسفه وألمه لبقاء هذه «المعضلة» من دون حل، ومرّ على أسفه لبقاء هذه المعضلة دون حلّ سنوات طوال، لعله عثر اليوم على حلّ لها، إن كان لا يزال حياً، خلال ساعة أو ساعات من النقد الذاتي مع نفسه، وإذن فلعله يكون في مقدمة الساعين إلى التعامل مع هذا الحل.

ولكني أعود فأقول: أليس من الطرائف النادرة حقاً أن في الناس اليوم من يرون البحث العلمي عن حل لهذه المعضلة استسلاماً للظلامية أو الظلام، والهروب من البحث العلمي النزيه إلى أودية الأوهام استنارةً؟! وتسأل: هو استنارة بماذا؟ وليس ثمة إلا جواب واحد: هو استنارة بقبس وضّاء من الجهالة العمياء.